فى النقـــد

الرافعى وطه حسين — تحت راية القرآن — كليلة ودمنة — شاعر الملك — الرافعى والابراشى باشا — الرافعى وعبد الله عفيفى — الرافعى والعقاد — على السفود — وحى الأربعين

سأحاول فى هذا الفصل أن أتحدّث عن شىء مما كان بين الرافعى وأدباء عصره ، وإنه لحديث شائك ، وإننى منه لفى حرج شديد . لقد مات الرافعى ولكنه خلف وراءه صدى بعيداً مما كان بينه وبين أدباء عصره من الخصومات الأدبية ؛ فما أحد منهم إلا له عنده ثأر وفى صدره عليه حفيظة أو له عليه معتبة ؛ ولقد اهتزت بلاد العربية كلُّها لنعى الرافعى وما اختلجت نفس واحد من خصومه فكتب إلى أهله كلمة عزاء ، إلا رجلاً واحداً كتب برقية إلى ولده ، هو الدكتور طه حسين بك ؛ فلا جرم كان بذلك أنزهَ خصوم الرافعى وأعرفَهم بالأدب اللائق !

ولقد مضى ما مضى منذ ترك الرافعى دنياه ؛ فهل رأيتَ أحداً منهم كتب شيئاً عنه يناله بالمدح أو المذمة ؟ وهل رأيت اللجنة التى تألفت لتأبينه قد استطاعت أن تحمل واحداً من هؤلاء على أن يشاركها فيما تعمل لتأبين الرافعى ، أو قل لتأريخ عصر من عصور الأدب قد انطوى تاريخه بين أعيننا ويوشك أن يضيع فى مدرجة النسيان ... ؟

ليت شعرى أكان الرافعى من الهوان فى المنزلة الأدبية بحيث لا يذكره ذاكر من زعماء الأدب العربى ولما ينقض على موته بضعة أشهر ، وبحيث تجتمع لجنة التأبين وتنفض وتحدد الموعد لحفلتها ثلاث مرات ثم لا تجد من يتقدم إليها ليقول فى تأبين الرافعى ، فتوشك أن تنسأ الأجل إلى غير ميعاد ... حتى إذا مضى العام فاحتفلت فلسطين ، واحتفلت سوريا ، واحتفل العراق ، واحتفل العرب فى المهاجر

من وراء البحار بذكرى الرافعى ؛ أقامت لجنة التأبين فى مصر حفلتها كما اتفق أن تكون لا كما كان ينبغى أن تكون ؛ تحرُّجا من التهمة بالعقوق ونكران الجميل !

ولكنه هو — رحمه الله — الذى ألَّب على نفسه هذه العداوات حيًّا وميتاً . لقد كان ناقداً عنيفاً حديد اللسان ، لا يعرف المداراة ولا يصطنع الأدب فى نضال خصومه . وكانت فيه غيرة واعتداد بالنفس ؛ وكان فيه حرص على اللغة « من جهة الحرص على الدين ، إذ لا يزال منهما شىء قائم كالأساس والبناء : لا منفعة فيهما معاً إلا بقيامهما معاً » . وكان يؤمن بأنك « لن تجد ذا دِخْلة خبيثة لهذا الدين إلا وجدت له مثلها فى اللغة » ... فكان بذلك كله ناقداً عنيفاً ، يهاجم خصومه على طريقة عنترة : يضرب الجبان ضربة ينخلع لها قلب الشجاع !

اقرأ له فى أول كتاب المعركة : « ... إنما نعمل على إسقاط فكرة خطرة إذا هى قامت اليوم بفلان الذى نعرفه ، فقد تكون غداً فيمن لا نعرفه ؛ ونحن نَرُدُّ على هذا وعلى هذا برد سواء ، لا جهلُنا من نجهله يلطِّف منه ، ولا معرفتنا مَنْ نعرفه تبالغ فيه ... فإن كان فى أسلوبنا من الشدة ، أو العنف ، أو القول المؤلم ، أو التهكم ؛ فما ذلك أردنا ؛ ولكنا كالذى يصف الرجل الضال ليمنع المهتدىَ أن يضل ، فما به زَجْرُ الأول بل عظة الثانى . . . »

وأول ما أعرف للرافعى فى النقد ، مقاله فى (الثريا) عن شعراء العصر فى سنة ١٩٠٥[١] ؛ ثم مقاله فى الرد على المرحوم المنفلوطى فى المنبر ، وكان نشر مقالاً يعارض به رأي الرافعى فى الشعراء وينتصف به لصديقه المرحوم السيد توفيق البكرى ، فكتب المرحوم حافظ إلى الرافعى يقول : « قد وكلت أمر تأديبه إليك ! »

ثم كانت مصاولات أدبية بينه وبين الجامعة المصرية غداة نشأتها فى سنة ١٩٠٨ — ١٩٠٩[٢] ، ثم مقالات عن الجديد والقديم ، والعامية والفصحى ، فى مجلتى البيان والزهراء[٣] ؛ ثم خصومة بينه وبين لجنة النشيد القومى فى سنة ١٩٢١ ؛ ثم وقعت الواقعة بينه وبين الدكتو طه حول كتاب رسائل الأحزان فى سنة ١٩٢٤[٤] فى السياسة الأسبوعية ؛ فكان هذا أولَ ما بينهما ؛ ثم كانت

(١) انظر ص ٣٧ من هذا الكتاب (٢) المعركة تحت راية القرآن
(٣) ، (٤) : المعركة تحت راية القرآن

المعارك العنيفة بينه وبين العقاد، وبينه وبين عبد الله عفيفى، وبينه وبين زكى مبارك؛ إلى مالا ينتهى من المصاولات بينه وبين أدباء عصره .

على أن أشهر هذه المعارك شهرةً هو ما كان بينه وبين طه ، وبينه وبين العقاد بل لعلها أشهر وأقسى ما فى العربية من معارك الأدب ، وإنها لجديرة بأن يؤرخ بها فى تاريخ النقد كما كان العرب يؤرخون بأيامهم ...

وإننى لأشعر أن على واجباً أن أكشف عما أعرف من الأسباب الخاصة أو العامة التى نشأت بها هذه الخصومات الأدبية أو انتهت إليها ، وإننى لأشعر بجانب ذلك أننى أكلف نفسى بهذا فوق ما أستطيع .

إن كل ما تناولته إلى الآن من تاريخ الرافعى كان له هو وحده، فلا علىّ ما دمت مطمئن النفس إلى ما أكتب ؛ أما الآن فسيكون إلى جانب اسم الرافعى أسماء ، وإنهم لذوو حول وسلطان ، فما أدرى أيرضون ما أكتب عنهم أم يسخطون . ولقد رأيت ما فعلتْ بالرافعى شجاعتُه فمات لم يذكره أحد منهم أو يترحم عليه ؛ وما أنا كفء لهذه العدوات ، ولست لها بأهل ، ومالى طاقة بالدفاع عن نفسى ، ولا لى أنصار ذوو لسان وبيان ، وما تهون علىّ نفسى ... !

ولكن ... ولكن من عَذيرى يوم الحق من كتمان الشهادة ؟ ولكن ... ولكن ما أنا إلا راوية يكتب ما رآه لا ما ارتآه . ولكن ... ولكنّ فلاناً وفلاناً اليومَ أناسىّ تصول وتجول، وإنها غداً لصفحات من التاريخ تتحدث. ولكن... ولكن التاريخ قد وقع فلا سبيل إلى مَحْوٍ فيه أو إثبات . ولكن ... ولكن الندم على ما كان لا يمحو من تاريخ الإنسان ما كان ...

فهذا عذرى عند فلان وفلان ممن يتناولهم حديثى بما يغضب أو يسوء ؛ فإن كان لى عندهم عذر من الكتمان إن كتمت الشهادة فإنى على الأهبة لأن أطوى من هذا الحديث ما قد يغضب أو يسوء ...

أما وإن تاريخ الرافعى فى هذا الفصل هو تاريخ الأدب فى جيل من الأدباء ؛ فإن كان من حق أحد أن يعتب علىّ لنشر هذا الفصل فإن حق الأدب لأوجب ؛ وما أريد من فلان وفلان شيئاً ، وما لى عندهم حاجة ولا لهم علىّ يد ؛ فليغضب مَن يغضب للحق أو لنفسه فلا علىّ من غضبه أو رضاه ، وإنى لماض فيما أنا بسبيله ...

بين الرافعى وطه

فى سنة ١٩٢٢ كانت السياسه الأسبوعية هى صحيفة الأدب والثقافة ؛ وفيها كان يعمل الدكتور طه حسين فى الأدب وفى السياسة معاً ؛ ولم يكن بين الرافعى وطه يومئذ شىء يثير ثائرة فى الصدر ، أو يدعو إلى عتاب وملامة ، ولكنّ إرهاصات كانت تسبق ذلك ببضع عشرة سنة ..

كان طه حسين فى سنة ١٩٠٩ هو الطالب المرموق فى الجامعة المصرية ، وكان الرافعى الشاعر ماضياً فى الشعر على سنته ، لا يعرف له أحد مذهباً غير الشعر ؛ فلما نشر مقاليه المشهورين فى (الجريدة) ينقد بهما أساليب الأدب فى الجامعة ، تنبهت إليه العيون ؛ فلما أنشأ كتابه تاريخ آداب العرب فى سنة ١٩١١ ، عرف الأدباء الرافعى العالم المؤرخ الراوية ، وعرفه طه حسين الطالب بالجامعة .

أفكان الطالب طه حسين يرشح نفسه من يومئذ ليكون أستاذ الأدب بالجامعة ، فنفس على الرافعى أن يؤلف كتاباً فى تاريخ آداب العرب ، فكتب ينقده ويقرر أنه لم يفهمه ، ثم يقرره ثانية فى نقد « حديث القمر » وثالثة فى « رسائل الأحزان » ؟

الحق أن الرافعى كان يطمع فى أن يكون إليه تدريس الأدب فى الجامعة منذ أنشئت الجامعة ، وقد كشف عن رغبته هذه فى مقاليه بالجريدة ؛ ولكن طه يومئذ كان طالباً فى الجامعة ؛ فمن الإسراف فى المزاح أن ننسب ما كان بينهما من بعدُ إلى النفاسة أو المنافسة على كرسى الآداب فى الجامعة ! ولكنه صدر من تاريخ هذه الخصومة الأدبية لا بد من الإشارة إليه !

وثمة حديث آخر يشير إلى أوّل ما كان بين الرافعى وطه ، أذكره نيه صديقنا الأديب عبد المعطى المسيرى ، صاحب « فى القهوة والأدب » . قال :

«زار الرافعى إدارة (الجريدة) مرة لبعض شأنه، فى سنة ١٩٠٨ (أوسنة١٩٠٩)؛ فلما همّ أن ينصرف طاف بمحررى (الجريدة) يحييهم — وبينهم طه حسين — ولكن الذى كان يصحب الرافعى فى طوافه لم يعرّفه طه ، ولم يقدّم أحدهما للآخر ؛ وعرفه

الرافعى على الرغم من ذلك ؛ إذ كان مثله لا يخفى واسمه على جبينه ... ... ولكنه لم يحيّه ولم يُظهر له المعرفة ؛ رعاية لعاطفته، وخشية أن يفهم طه أن الرافعى لم يعرفه إلا بعلّته التى يتميز بها ، فيألم وتتأذى نفسه ؛ ولكن طه طوى صدره على شىء للرافعى من يومئذ ؛ لأن الرافعى انصرف دون أن يحييه كما حيّا زملاءه العاملين معه فى الجريدة ! » .

* * *

ونفخت السياسة الأسبوعية فى الأدب روحاً جديدة ، واتخذت لها أسلوباً فى الدين وفى العلم وفى الأدب ، قال عنه جماعة من الأدباء : إنه إلحاد وكفر وضلال . وقالت طائفة : إنه المذهب الجديد فى الدين والعلم والأدب . ثم مضت السياسة بما تكتب وبما تفسح من صدرها للكتاب ، تقسم الأدباء إلى فرق ومعسكرات ، وقديم وجديد ، ورفعت فى الجهاد راية ...

والرافعى رجل — كان — فيه عصبية للدين ، وعصبية للقديم ؛ فأيقن منذ قرأ العدد الأول من السياسة الأسبوعية أن سيكون له شأن مع السياسة وكتاب السياسة فى غد ...

ونال الرافعى رشاش من بعض المعارك وإنه لبعيد عن الميدان ، فأحس فى نفسه رغبة فى الكفاح فتحفز للوثبة ...

ودسّ كلمةً إلى طه يذم أسلوبه بما يشبه المدح ، ويعيب عليه التكرار وضيق الفكرة ، فنشرها طه فى السياسة قبل أن يستبين مغزاها وما ترمى إليه ... ثم عرف ...

وتهيأت أسباب الحرب ولم يبدأ أحد بالعدوان ... وتربص الرجلان فى انتظار السبب المباشر لبدء المعركة ...

ثم أصدر الرافعى رسائل الأحزان ، فسعى راجلاً إلى دار السياسة ليهدى إليها كتابه . وهناك التقى الرافعى وطه حسين وجها لوجه ... ونظر الرافعى إلى طه ، واستمع طه إلى حديث الرافعى ، وتصافح الخصمان قبل أن يصعدا إلى حلبة

المصارعة ، ونفخ الدكتور هيكل فى صفارة الحكم ، وبدأت المعركة . وكانت مشادة حادة خرج الرافعى يتحدث عنها وصمت طه

لمن يا ترى كانت الغلبة ؟ الرافعى يقول : أنا ... وطه لا يتكلم ، والدكتور هيكل ضنين بالحديث

ومضت فترة ، ثم نشر طه حسين رأيه فى رسائل الأحزان فى السياسة الأسبوعية ، فرفع راية العداء وأعلن الحرب . ورد عليه الرافعى يقول :

« يسلّم عليك المتنبى ويقول لك :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم »

ثم مضى فى رده يهزأ ويسخر ويتجنى ويتحدى ، فى مقال طويل[1] .

وطارت الشرارة الأولى فاندلعت ألسنة النار ، فما خمدت حتى أحدثت أزمة وزارية ، وأنشأت جفوةً بين سعد وعدلى ، وأوشكت أن تؤدى بعلى ماهر إلى المحاكمة ، وهزّت دوائر البرلمان ، ثم انتهت فى النيابة العمومية ...

* * *

لم تكن بداية هذه المعركة تنذر بما آلت إليه ، فما كانت فى أولها إلا خصومة بين مذهبين فى الأدب وأسلوبين فى الكتابة ، فما لبثت من بعد أن استحالت إلى حرب شعواء يتقاذف فيها الفريقان بألفاظ الكفر والضلال والإلحاد والغفلة والجمود ؛ وانتقلت من ميدان الأدب واللغة إلى ميدان الدين والقرآن ، ثم إلى ميدان السياسة والحكومة والبرلمان ، ثم إلى ميدان القضاء . والدكتور طه رجل لا تستطيع أن تفرق بين مذهبه فى الأدب ومذهبه فى الدين ، ولا بينهما وبين مذهبه فى السياسة . والرافعى رجل كان لا يفرق بين الدين والأدب ، ولا يعرف شيئاً منهما ينفصل عن شىء أو يتميز منه ، ولكنه فى السياسة كان يتحلى بفضيلة الجهل التام ، فلا تعرف له رأياً فى السياسة تؤاخذه به أو تناقشه فيه ، لأنه كان لا يعرف من السياسة إلا حادثة اليوم بأسبابها ، لا بأصحابها ؛ وكم جرّ عليه هذا

(١) المعركة ص ١٠٩ — ١٢٢

الجهل السياسى من متاعب ! وكم ألصق به من تهم ! ولكنه هنا كان من عوامل توفيقه فى هذه المعركة .

* * *

فى سنة ١٩٢٥ كانت الحكومة للأحرار الدستوريين ولأصدقائهم . والأحرار الدستوريون حزب طه حسين ، نشأ بينهم ووقف قلمه على الدعاية لهم . فلما رأى على ماهر باشا — وزير المعارف يومئذ — أن يضم الجامعة المصرية إلى وزارة المعارف ، انضم معها الدكتور طه أستاذ الأدب العربى بالجامعة ؛ على شرط الواقف !

ومضى الدكتور طه يحاضر طلابه فى كلية الآداب محاضرات فى الأدب الجاهلى ، على الأسلوب الذى رآه لهم ؛ فلما استدار العام جمع طه محاضراته فى كتاب أخرجه للناس باسم « فى الشعر الجاهلى » ؛ وقرأ الناس كتاب الدكتور طه حسين بعد أن سمعه طلابه منجّماً فى كلية الآداب ، فقرءوا رأياً جديداً فى الدين والقرآن رجّح ما كان عندهم ظناً بالدكتور طه حسين وكُتّاب السياسة الأسبوعية . فقال الأكثرون من القراء : هذا كفر وضلال . وقالت طائفة : هو خطأ فى الفكر وإسراف فى حرية الرأى . وقال الأقلون : بل هو الأسلوب الجديد لتجديد الآداب العربية وتحرير الفكر العربى . وظل الرافعى ساكتاً ؛ إذ لم يكن قرأ الكتاب بعد ، فما نبهه إلى خطره إلا مقالان نشر أحدهما الأستاذ عباس فضلى القاضى ، فى السياسة الأسبوعية ، وكتب ثانيهما الأمير شكيب أرسلان فى كوكب الشرق ؛ فكان فيهما الإنذار للرافعى بأنه قد آن أوانه ...

واقتضى الرافعى قلمه وكتب مقاله الأول فبعث به إلى جريدة « كوكب الشرق » ، ثم مقالات ثلاثاً بعده ، ولم يكن قد قرأ الكتاب ولا عرف عنه إلا ما نشرت الصحف من خبره ؛ فكانت المعركة بذلك فى ميدانها الأول : خصومةً بين مذهبين فى الأدب وفى الكتابة وفى طرائق البحث . على أن الرافعى لم ينس فى هذه المقالات أن له ثأراً عند طه ، فجعل إلى جانب النقد الأدبى فى هذه المقالات شيئاً من أسلوبه

المرّ فى النقد ، ذلك الأسلوب الذى لا يريد به أن يفحم أكثر مما يريد أن يثأر وينتقم .

ثم تلقّى كتاب الدكتور طه حسين فقرأه ، فثارت ثائرته لأمر جديد ...

لقد كان شيئاً منكراً أن يزعم كاتب أن له الحق فى أن يتجرّد من دينه ليحقق مسألة من مسائل العلم ، أو يناقش رأياً من الرأى فى الأدب ، أو يمحّص رواية من الرواية فى التاريخ . لم يكن أحد من كتاب العربية ليترخّص لنفسه فى ذلك فيجعل حقيقة من حقائق الدين فى موضع الشك ، أو نصاً من نصوص القرآن فى موضع التكذيب ؛ ولكن الدكتور طه قد فعلها وترخّص لنفسه ، ومنح نفسه الحق فى أن يقول قالةً فى القرآن وفى الإسلام وتاريخ الإسلام ؛ وقرأ الرافعى ما قال طه ، فغضب غضبته للدين والقرآن وتاريخ المسلمين ، ونقل المعركة من ميدان إلى ميدان ...

وكان طه فى أول أمره عند الرافعى كاتباً يزعم أن له مذهباً جديداً فى الأدب ، فعاد مبتدعاً مُضِلاً له مذهب جديد فى الدين والقرآن ؛ فكما ترى البدوىّ الثائر لعرضه أن يُنْتَهك ، كان الرافعى يومئذ ؛ فمضى يستعدى الحكومة والقانون وعلماء الدين أن يأخذوا على يده ويمنعوه أن تشيع بدعتُه فى طلاب الجامعة . . . وترادفت مقالاته ثائرةً مهتاجة تفور بالغيظ وبالحميّة الدينية وبالعصبية للإسلام والعرب ، كأن فيها معنى الدم !

ونسى فى هذه المقالات كلّ اعتبار مما تقوم به الصِّلاتُ بين الناس ، فما كان يكتب نقداً فى الأدب ، بل يصبّ لهيباً وحما وقذائف لا تُبقِى على شىء . وكان ميدانه فى جريدة كوكب الشرق ، وكوكب الشرق يومئذ هى جريدة الأمة ، وجريدة سعد ، وجريدة الشرق العربى كله ؛ فمن ذلك لم يبق فى مصر قارئٌ ولا كاتب إلا صار له رأى فى طه حسين وفى دينه ، وإن للأمة من قبل رأياً فى وطنيته ومذهبه ، وحسبك بها من وطنية فى رأى الشعب ، وطه حسين هو عدوّ سعد .

ووقفت الدوافع السياسية إلى جانب الرافعى تؤيده وتشدّ أزره ، وإن لم يكن له فى السياسة باع ولا ذراع .

وبلغت الصيحة آذان شيوخ الأزهر ، فذكروا أن عليهم واجباً للدفاع عن الدين والقرآن فجمعوا جماعتهم إلى جهاد .

وتساوقت الوفود إلى الوزارة تطلب إليها أن تأخذ طه بما قال ؛ وإن طه لأثير فى وزارة الأحرار الدستوريين وأصدقائهم ؛ ولكنها لم تستطع أن تتجاهل إرادة الرأى الإسلامى العام ...

ومضى الرافعى فى حملته تؤيده كل القوى وتشدّ أزره كل السلطات .

ونشطت النيابة العمومية لتنظر فى شكاوى العلماء وتحدد الجريمة وتقترح العقاب ، فعرف الدكتور طه حسين أن عليه وقتئذ أن يقول شيئاً ، فكتب كتاباً إلى مدير الجامعة يشهده أنه مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ... ولكن الرافعى لم يقنع فمضى فى النقد على جادّته !

ولم تجد الجامعة فى النهاية بُدًّا من جمع نسخ الكتاب من المؤلف ومن المكتبات لتمنع تداوله ، لعل ذلك يرد الفتنة التى توشك أن تعصف بكل شىء حتى بالجامعة ، ولكن الرافعى لم يقنع فاستمر فى حملته على الدكتور طه حسين ؛ ولا ظهير له يومئذ غير الدكتور زكى مبارك ... !

ليس من شأنى أن أنص الحكم فى هذه القضية ، فإن وثائق الدعوى ما تزال بين أيدى القراء ، وليس يهمنى لمن كانت الغلبة ؛ فهذا كتاب للرواية لا للرأى ؛ ولكن الذى يجب أن يعرفه القراء ، هو أن الدكتور طه حسين لم يحاول الدفاع عن نفسه إلا دفاعاً سلبيًّا ، فأوى إلى الصمت ؛ ويزعم الدكتور زكى مبارك « أن الدكتور طه حسين كان معقول القلم واللسان — فى هذه المعركة — بفضل الإشارات التى صدرت إليه بأن يترك العاصفة تمر ، حتى لا يهزم أنصاره أمام الحكومة وأمام البرلمان ! » . وهو قول لا أدرى أيقصد به الدكتور زكى مبارك أن ينتصر لطه أو للرافعى ؛ ولكنه قول صديق عاقل على كل حال ... !

لقد كانت هذه المقالات التى ينشرها الرافعى فى كوكب الشرق صيحة مدويّة وصلت إلى كل أذن ؛ فما أحسب أحداً فى أدباء العربية وقرائها قد فاته منها شىء . لقد كان المصريون وقتئذ مكرومة أفواههم عن السياسة والحديث فى شئونها ؛ فلعلهم وجدوا فى هذه المقالات ما يعزيهم عن شىء بشىء ، إذ كان طه عندهم يومئذ ما يزال هو طه حسين عدوّ سعد ، ومحرر جريدة السياسة ، وعضو الأحرار الدستوريين ... !

لا أزعم أن اهتمام الناس جميعاً فى مصر بهذه المقالات لأنهم جميعاً قد صار لهم فى شئون الأدب رأى ، أو لهم فى الذود عن الإسلام حمية ، لا ؛ ولكنه نوع من التعصب السياسى جاء اتفاقاً ومصادفة فى الوقت نفسه ، ليكون تأييداً لقول الله وانتصاراً لكلمته ؛ على أن هذه المقالات بإقبال الناس عليها — لسبب أدبى أو لسبب سياسى — قد بعثتْ روحاً دينية كانت راقدة ، وأذكت حميّة كانت خامدة ، وألّفت قلوباً إلى قلوب كانت متنافرة ، ونبهت طوائف من عباد الله كانت أشتاتاً لتعمل للذّود عن دين الله .

وإنى لأذكر مثلاً مما كان من إقبال الناس على هذه المقالات ، أننى — وكنت طالباً — لم أكن أطيق الانتظار حتى يجىء بائع الصحف إلى الحى الذى أسكنه لآخذ منه كوكب الشرق ، بل كنت وجماعة من الطلاب نستعجل فنقطع الطريق من (المنيرة) إلى (باب اللوق) راجلين لنشترى من الأعداد المبكرة المسافرة إلى حلوان ، لنقرأها قبل أن يقرأها الناس .

* * *

وتطورت السياسة المصرية ، وتخلى زيور باشا عن الحكم ، وعادت حكومة الشعب يؤيدها برلمان سعد ، وعكف نوّاب الأمة على تراث الحكومة الماضية يفتشون عن أخطائه ، وما يزال فى آذانهم صدى يرنّ عما كان من أمر الجامعة وأمر طه حسين ، فأبدى البرلمان رغبته فى محاكمته . وقال النواب : نحن نريد . وقالت الحكومة : وأنا لا أريد . وتَشادّ عدلى رئيس الحكومة وسعد رئيس

النواب ؛ فهبَّت زوبعة ، ونشأت ضجة ، وحدثت أزمة وزارية ، ولوّح عدلى بالاستقالة ، وأصر سعد على وجوب تنفيذ رأى الأمة ، وتعقّدت المشكلة ...

وسعى الوسطاء بالصلح بين الزعيمين ؛ فما كان الحل إلا أن يتقدم النائب الجليل السيدعبد الحميد البنان بشكواه إلى النيابة العمومية؛ فتسقط التبعة عن الحكومة ، وينفذ رأى الأمة ، ثم تسير القضية إلى غايتها أمام القضاء ، وكان بعد ذلك ما كان

وإذ كان انضمام الجامعة إلى وزارة المعارف عملاً من أعمال وزير المعارف ، فإن ما ثار حول الجامعة بسبب الدكتور طه حسين قد دعا نائباً أو نواباً إلى اقتراح محاكمة على ماهر باشا بما فعل للجامعة ، وبما غير من نظام التعليم العام من غير أن يكون ذلك من حقه الدستورى ... ولكنه ظل اقتراحاً لغير التنفيذ .

* * *

ليست كل هذه الحوادث من تأليف الرافعى ، ولكنها شىء يتصل بتاريخه وله أثر فيه أىُّ أثر ؛ فلولا ما كان من الخصومة بين الرافعى وطه ، لما قامت هذه الضجة ، ولا ثارت هذه الثائرة ، ولَمَا كان فى التاريخ الأدبى أو السياسى لهذه الحقبة شىء مما كان .

على أن لهذه المعركة قد خلفت لنا شيئاً أغلى وأمتع ، ذلك هو كتاب : « المعركة تحت راية القرآن » ، وهو جماع رأى الرافعى فى القديم والجديد ، وهو أسلوب فى النقد سنتحدث عنه بعد

* * *

وقد ظلت الخصومة قائمة بين الرافعى وطه إلى آخر أيامه ، بل أحسبها ستظلّ قائمة ما بقيت العربية وبقى تاريخ الأدب ؛ فما هى خصومة بين شخص وشخص تنتهى بنهايتهما ؛ بل هى خصومة بين مذهب ومذهب سيظل الصراع بينهما أبداً مادام فى العربية حياة وقدرة على البقاء

وما أعرف أن الرافعى وجد فرصة ليغمز طه فى أدبه ، أو وجد طه سانحة لينال من الرافعى فى فنه ومذهبه ، إلا أفرغ كل منهما ما فى جعبته . وكم مقال

من مقالات طه حسين قرأه علىّ الرافعى فقال : اسمع ، إنه يعنينى . وكم مقال أملاه علىّ الرافعى أو قرأته له فوجدت فيه شيئاً أعرف مَن يعنيه به . ومرة أو مرتين قال الأستاذ الزيات صاحب الرسالة للرافعى : أرجو أن تعدِّل فى أسلوب هـذا المقال — مما ينشر فى الرسالة — فإنى لا أحب أن يظن طه أنك تعنيه بشىء تنشره فى الرسالة وعلىّ تبعتُه عنده

ولما ثارت فى الجامعة مسألة المسجد والمصلى والدروس الدينية وفصل الفتيان عن الفتيات ، قُبيل موت الرافعى بأشهُر ، كتب مقالاً للرسالة غمز فيه طه وحَيَّا شباب الجامعة ، ولم يجد صاحب الرسالة بُداً من نشره . وفُتن الرافعى بمقاله ذاك وحَسُنَ عنده وقعه ، فأنشأ تتمة له بعنوان « شيطان وشيطانة » يغمز بها الدكتور طه حسين، ولـكن صاحب الرسالة وقف له واحتج حجة ، رعاية لصديقه القديم . وكان أولَ مقال يكتبه الرافعى فتردّه له الرسالة . وقد اغتاظ الرافعى لذلك غيظاً شديداً ، وأحسبه مات وفى نفسه حسرة منه ! لو كان لى أن أعرف أين أجد صورة هذا المقال لنشرته بحق التاريخ الذى لا يحابى الأحياء ولا الأموات ، ولـكن أين أجده ؟ صاحب الرسالة يقول : لقد رددته إليه . والدكتور محمد يقول : لم أجده على مكتب أبى . وما كان بين هذا المقال وبين أجل الرافعى إلا قليل

ولم يتلاق الرافعى وطه وجها لوجه فى النقد بعد هذه المعركة حول كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، ولـكن المعارك بينهما ظلت مستمرة من وراء حجاب ، تنتقل من ميدان إلى ميدان

ولما اشترك الرافعى فى المباراة الأدبية فى سنة ١٩٣٦ ، ونال فى بعضها من الجائزة دون ما كان يطمع ، لم ينسب ذلك لشىء إلا لأن طه كان عضواً فى اللجنة ... وطه خصم عنيد ...

* * *

أما بعد فهذا شىء للتاريخ أثبته على ما فيه ، ليس فيه رأيى ولا رأى أحد معى ؛

ولكنه شيء مما حكاه لى الرافعى أو قرأت فى كتبه ، فكتبته فى موضعه من هذا البحث بضمير المتكلم ومالى فيه إلا الرواية ، وذلك حسبى من العذر إن كان علىّ معتبة أو ملام .

تحت راية القرآن

الجديد والقديم ...! هنا ميدان الخصومة بين الرافعى وأدباء عصره ؛ فمنذ نحله أديبٌ منهم زعامة المذهب القديم فى مقال كتبه لمجلة الهلال سنة ١٩٢٣ ، نشط الرافعى ليجاهد هذه الدعوة التى يدعون إليها بتقسيم الأدب إلى قديم وجديد ؛ إذ لم تكن هذه الدعوة عنده إلا وسيلة إلى النَّيل من العربيـة فى أرفع أساليبها ، وسبيلاً إلى الطعن فى القرآن وإعجاز القرآن ، وباباً إلى الزراية بتراث الأدباء العرب منذ كان للعرب شعر وبيان . ومن ذلك اليوم نصب الرافعى نفسه ووقف قلمه على تفنيد دعوى التجديد ؛ فجعل همَّه من بعدُ أن يتتبع آثار الأدباء الذين ينتسبون إلى الجديد ليردَّ عليهم ، ويكشف عن باطلهم . وما كان يرى فى عمله ذلك إلا أنه جهاد الله تحت راية القرآن ؛ فمن ذلك كان اسمُ كتابه الذى جمع به كل ما كتب فى المعركة بين الجديد والقديم ، من سنة ١٩٠٨ — ١٩٢٦ .

هو كتاب لم ينشئه ليكون كتاباً ، ولكنها مقالات تفرقت أسبابها واجتمعت إلى هدف واحد ، وكانت مزقاً مبعثرة فى عديد من الصحف والمجلات فجمعها بين دفتى كتاب ، فاجتمع بها رأى الرافعى فى القديم والجديد على اختلاف أسبابه ودواعيه وما كُتب له ؛ على أنك لا تكاد تبلغ من صفحات هذا الكتاب إلى الصفحة المائة من أربعمائة ، حتى يخلو الميدان من كل أنصار الجديد إلا رجلاً واحداً هو الدكتور طه حسين بك ، ويتوجه إليه الخطاب والرد فى كل ما بقى من صفحات الكتاب ؛ فكأنما أنشأه الرافعى وجمعه كتاباً للرد عليه هو وحده ، وكأنه هو وحده الذى يدعو إلى الجديد وينتصر له ويحمل رايته ؛ فإذا أوشكت أن تفرغ من الكتاب فرغت من الرافعى ومن رأيه ومن حديثه ، لتقرأ جلسة

من جلسات البرلمان يرأسها سعد ويتداول الحديث فيها طائفة من النواب عن طه حسين ورأى طه حسين فى الأدب وفى الدين وفى القرآن ، ويحتدم فيها الجدل بين حكومة عدلى وبرلمان سعد فى شأن هو إلى الأدب أدنى منه إلى السياسة ؛ وإنها لجلسة ممتعة خليقة بأن تكون فى موضعها من كتب الأدب وتاريخ النقد الأدبى .

* * *

وليس الكتاب على استواء واحد فى أسلوبه ؛ ففى المقالات الأولى منه تقرأ رأى الرافعى هادئاً متزناً فيه وقار العلماء وحكمة أهل الرأى ورحابة صدر الناقد البرىء ؛ فإذا وصلت من الكتاب إلى قدْر ما ، رأيت أسلوباً وبياناً غير الذى كنت ترى ، وطالعتْك من صفحات الكتاب صورة جَهْمةٌ للرافعى الثائر المغيظ المحنق ، جاحظ العينين كأنما يطالب بدم مطلول ، مُزْبد الشدقين كالجمل الهائج ، منتفخ الأنف كأنما يشم ريح الدم ، سريع الوثاب كأن خصماً تراءى له بعد ما دار عليه طويلاً فهو يخشى أن يفر ، وهو هنا يعنى طه حسين وحده !

وليس عجيباً أن ترى هذين اللونين من النقد لأديب واحد بين دفتى كتاب ، فإن هذه المقالات وإن صُوِّبتْ إلى هدف واحد قد اختلفت دواعيها وأسبابها ومن كُتبت له ، وقد كان بينها فى التاريخ الزمنى سنوات وسنوات ، والكاتب المتجدد لا يثبت على لون واحد من عام إلى عام .

على أنك تقرأ للرافعى من هذا الكتاب رأيه فى طريقة تدريس الأدب بالجامعة غداة تأليفها سنة ١٩٠٨ ، فتراه يدعو إلى مذهب جديد فى تدريس الأدب ، وتقرأ له — من الكتاب نفسه — ردَّه فى سنة ١٩٢٦ على طه فى طريقته الجديدة لتدريس الأدب ، فتراه ينكر عليه هذا الجديد ؛ فتعلم من هذا وذاك أن الرافعى لم يكن يعنى بحملته أن يناهض كل جديد ، بل كانت غايته أن يردّ إلى الأفواه كل لسان يحاول بدعوى الجديد أن يتنقص من القديم ليخلص من ذلك إلى النيل من لغة القرآن ولغة الحديث ومن تراث أدباء العربية الأولين

ليس يعنيني هنا أن ألخص رأى الرافعى فى الجديد والقديم ، فمراجع البحث عن رأيه فى ذلك واسعة مستفيضة ، إنما قصدت إلى تعريف هذا الكتاب إلى قراء العربية فى عرض موجز ووصف كاشف ؛ أما ما دون ذلك فله من شاء من أهل الرأى والنظر ، وله منى غير هذا المجال من الحديث .

* * *

والآن سأتجاوز الفصول الأولى من الكتاب لأتحدث عن أسلوبه فى سائره ؛ ويبدأ هذا الجزء من صفحة ١٠٤ ، وفيه تفصيل ما كان بين الرافعى وطه حسين منذ بدأت الخصومة بينهما حول « رسائل الأحزان » إلى أن انتهت عند مجلس النواب حول كتاب « فى الشعر الجاهلى » ، وهو فصول عدة ، فيها ألوان من النقد مختلفة ، وأساليب فى البيان متباينة؛ ففيها التهكم المر ، وفيها الهجوم العنيف ، وفيها المصانعة والحيلة ، وفيها ردُّ الرأى بالرأى ، وفيها تقرير الحقيقة على أساليب من فنون النقد ، وفيها المراوغة ونصب الفخاخ للإيقاع ، وفيها الوقيعة بين فلان وفلان ، وفيها الزلق إلى فلان وفلان ، وفيها العلم والأدب والاطلاع الواسع العميق ، وفيها شطط اللسان ومر الهجاء ؛ وفيها فن بديع طريف ، فيما حكى الرافعى عن كليلة ودمنة ...

ولكن أكثر هذه الفصول يطرد على مثال واحد إذا أنتَ نظرتَ إليه فى جملته ، فيبدأ كل فصل منها بأسلوب أليمٍ من التهكم يفتنّ الرافعى فيه فنوناً عجيبة حتى يبلغ نصف المقال ؛ ثم يميل إلى طرف من موضوع الكتاب المنقود ، فيتناوله على أسلوب آخر هو أقرب الأمثلة إلى ما ينبغى أن يكون عليه النقد الأدبى ، لولا عبارات وأساليب هى لازمة من لوازم الرافعى فى النقد إذا كان بينه وبين من ينقده ثأر ... بَلَى إنها نموذج عال فى النقد العلمىّ الصحيح لولا تلك العبارات وهذه الأساليب !

كليلة ودمنة

إن مبالغة الرافعى فى التهكم قد شقّقتْ له فنوناً من المعانى والأساليب ، لولا الناحية الشخصية منها لكانت نماذج لها اعتبار وقيمة فى أدب الإنشاء ؛ وأبدعُ هذه الأساليب حديثُه عن كليلة ودمنة وما نحَلَهما من الرأى فيما تناول من فنون الأدب. وكليلة ودمنة كتاب فى العربية نسيج وحده ، لم يستطع كاتب من كتاب العربية أن يحاكيه منذ كان ابن المقفع ، إلا مصطفى صادق الرافعى . وكانت أول هذه المحاكاة اتفاقاً ومصادفة ، فى مقالة من مقالات الرافعى فى طه حسين ؛ إذ أراد أن يتهكم بصاحبه على أسلوب جديد ، فبعث كليلةَ ودمنة ليقول على لسانهما كلاماً من كلامه ورأياً من رأيه ؛ فلما أتم تأليف هذا الفصل عاد يقرؤه ، فإذا هو عنده يكاد من دقة المحاكاة وقرب الشبه أن ينسبه — على المزاح — إلى ابن المقفع فلا يشك أحد فى صدق روايته ، فنشره بعد ما قدم له بالكلمة الآتية : « عندى نسخة من كتاب كليلة ودمنه ليس مثلها عند أحد ... ما شئتُ من مثل إلا وجدته فيها ؛ وقد رجعتُ إليها اليوم فأصبتُ فيها هذه الحكاية ...

« قال كليلة : أَمَا تضرب لى المثل الذى قلتَ يا دمنة ؟ قال دمنة : زعموا أن سمكة فى قدر ذراع ... ... » ومضى فى اختراعه وتهكمه حتى انتهى إلى رأى دمنة فى الدكتور طه حسين[1] ...

ثم استمر ينقل عن (نسخته الخاصة) من كليلة ودمنه ما يجعله مقدمة القول للتهكم فيما يلى من مقالات فى الرد على الدكتور طه حسين ، فنشر منها ثمانية فصول طريفة ممتعة فى كتاب المعركة . وإن قارئ هذه الفصول الثمانية ليرى فيها لوناً طريفاً من أدب الرافعى ، لو أن الظروف واتتْه لأتمّه فأنشأ به فى العربية إنشاء جديداً له خطر ومقدار . على أن الرافعى لم يكن يقصد أول ما قصد أن يتمه كتاباً ، إنما دفعه إلى إنشاء هذه الفصول السبعة بعد الفصل الأول ، ما لقى من استحسان

---

(١) المعركة : ص ١٧٩ — ١٨٠

القراء لهـذا اللون الجديد من أساليب التهكم فى النقد ؛ وأحسب أن الدكتور طه حسين نفسه كان معجباً بهذه الفصول الثمانية من كليلة ودمنه مع ما يناله فيها مما يؤلم ويسىء ، كما كان يعجب (فلان) بما ينشر له من الصور الرمزية الساخرة لأن فيها فناً ومقدرة ... !

وانتهى الرافعى من حديث كليلة ودمنة بعد انتهاء هذه المعركة ، وظلّ مهملاً (نسخته الخاصة) ست سنين بعد ذلك ، حتى تذكرها فى سنة ١٩٣٣ فى إبان المعركة بينه وبين العقاد حول « وحى الأربعين » ، فنشر الفصل التاسع منها فى البلاغ بعنوان « الثور والجزار والسكين » . ثم نشر فى الرسالة سنة ١٩٣٥ الفصل العاشر بعنوان « كفر الذبابة ! » يعنى بها مصطفى كمال وحركته الدينية ، غفر الله له !

وقد كان فى نية الرافعى أن يتم هذه النسخة من كليلة ودمنة يعارض بها كتاب ابن المقفع أو يتممه ، ولـكنه لم يوفق ، وكان فى ذلك خير ؛ فهذه الفصول فى موضعها من الـكتب التى نشرت بها أجمل وأخفّ ، وإفرادها بالنشر يحملها على تكلف الصنعة ويباعد بينها وبين أذواق القراء . على أن هذه الفصول لا اتصال بينها فى موضوعها بحيث تصلح للنشر متساوقة متتابعة كما تتساوق الفصول والأمثال فى كتاب ابن المقفع .

هذا مجمل الرأى وملخص الموضوع فى كتاب المعركة تحت « راية القرآن » وما احتواه . وهو وكتاب « على السفود » خلاصة مذهب الرافعى فى النقد وأسلوبه فى الجدال ؛ وفيهما أشلاء المعركتين الطاحنتين بينه وبين طه وبينه وبين العقاد ، بدمائهما ، ورِمامهما ، ولهيبهما المستعر ، ودخانهما الخانق ، وغبارها الـكثيف ...

لو تجرد هـذان الـكتابان من بعض ما فيهما لـكانا خير ما أنتجت العربية فى النقد ، وأحسن مثال فى مكافحة الرأى بالرأى مع الاطلاع الواسع والفكر الدقيق . ولـكن وا أسفاه، إن الإطار يحجب ما فى الصورة من جمال ، فمنذا — غير مالك الصورة — يستطيع أن يحطم هذا الإطار ليجلوَ الصورة فى جمالها على أعين الناس ؟

شاعر الملك

وهذا فصل آخر مما يتصل بموضوع الحديث عن الرافعى فى النقد ؛ إذ كان هو أولَ ما بين الرافعى والأستاذ عبد الله عفيفى ؛ فإنى لأقدّم به للقول عن خبر ما كان بينهما من الخصومة التى مهّدت للرافعى من بعدُ أن ينشئ كتابه (على السَّفُّود) فى نقد ديوان العقاد .

* * *

فى سنة ١٩٢٦ كان ناظر الخاصة الملكية ، هو المرحوم محمد نجيب باشا ، وكانت السياسة المصرية تسير فى طريق ذى عِوَج ، مهّد لطائفة من رجال الحكم والسياسة أن ينشئوا حزباً ينسبون إليه الولاء للقصر ، فهيئوا لطائفة غيرهم من السياسيين أن يزعموا أنهم أولياء على حقوق الشعب ، حِراصٌ على سلطة الأمة ؛ فنشأت بذلك قوة بإزاء قوة ، وتناظر سلطان وسلطان ، وكان لكل طائفة لسان وبيان ...

فى تلك الآونة ، تقدم المرحوم محمد نجيب باشا إلى الرافعى أن يكون شاعر الملك ، فلقى ذلك العطفَ الكريم بحقه من الشكر والرضا وعرفان الجميل .

وشاعرُ الملك أو شاعرُ الأمير لقب قديم فى دولة الأدب ، وله فى تاريخ العربية تاريخ ، منذ كان النابغة والنعمان ، وزهير وهرم بن سنان ، والأخطل وبنو أمية ، والنواسىّ وأبو العتاهية فى بنى العباس ، والبحترى فى إمارة المتوكل ، والمتنبى فى بلاط سيف الدولة ؛ إلى شعراء وملوك لا يحصيهم العدّ ، ولا ننس فى تاريخ مصر الحديث أن نذكر الشاعرين : أبا النصر ، والليثى ، وليس بعيداً عنا أمير الشعراء المرحوم شوقى بك « شاعر الحضرة الفخيمة الخديوية » ، وقد كان من الولاء والحب لمولاه بحيث لم تطمئن السلطة الحاكمة إلى بقائه فى مصر بعد خلع الخديو عباس فنفتْه إلى الأندلس .

ولقد كان شاعر الملك قبل الرافعى هو الشاعر المرحوم عبد الحليم المصرى ؛

فلما مات تطلعت الشعراء إلى موضعه ؛ وكان أكثرهم زلفى إلى هذا المنصب هو المرحوم حافظ إبراهيم ، إذ كان ما يزال فى نفسه شىء يهفو به إليه ، مما كان بينه وبين شوقى من المنافسة الأدبية فى صدر أيامه على رتبة شاعر الأمير .

* * *

وعاد الرافعى إلى الشعر بعد هجر طويل ؛ إذ كان آخر ما نشر من الشعر هو ديوان النظرات فى سنة ١٩٠٨ ، ثم لم يقل بعده إلا قصائد متفرقة فى آماد متباعدة ، لحادثة تنبعث لها نفسه ، أو خبر ينفعل به جنانه . وكان أكثر ما قال الشعر بعد ذلك ، فى سنة ١٩٢٤ ، فى إبان العاصفة الهوجاء من حبّ فلانة ، وأكثر شعره عنها منشور فى كتبه الثلاثة التى أنشأها للحديث عن هذا الحب ؛ ثم انبعث البلبل ينشد أهازيجه من جديد ، على السرحة الفينانة فى حديقة قصر الملك ، فصغت إليه القلوب وأرهفت له الآذان ...

واستمر يرسل قصائده فى مديح الملك لمناسباتها ، من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٠ ، حتى وقع بينه وبين الإبراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ، وعاد ما بينه وبين الشعر إلى قطيعة وهجران ، بعد ما أنشأ الخصومةَ بينه وبين عبد الله عفيفى ...

* * *

وقصائد الرافعى فى مديح الملك فؤاد نظام وحدها فى شعر المديح : تقرأ القصيدة من أولها إلى آخر بيت فيها ، فتقرأ قصيدة فى موضوع عام من موضوعات الشعر ، ليس من شعر المديح ولا يمتّ إليه ؛ فلولا بيتان أو أبيات فى القصيدة الخمسينية أو السبعينية يخص بهما الملك ويمدحه ، لما رأيتها إلا قصيدة من باب آخر ، تسلكها فيما تشاء من أبواب الشعر إلا باب المديح . اقرأ قصيدة الخضراء — يعنى الراية — وقصيدة الصحراء فى رحلة الملك إلى الحدود الغربية ، واقرأ غيرهما ؛ فإنك واجدٌ فيه هذا الذى ذكرت ، وواجدٌ فناً فى الشعر تعرف به الرافعى فى المديح فوق ما عرفتَ من فنونه ؛ فإذا حقّقْتَ هذه الملاحظة فى مدائح

الرافعى وثبتتْ عندك ، فارجع إلى تاريخ هذه الفترة من السياسة المصرية ثم التمس لها تفسيراً من التفسير ، أو فارجع إلى تاريخ الرافعى نفسه واذكر ما تعرف من أخلاقه تعرف تفسيرها ومعناها

لقد كان الرافعى يجهل السياسة جهلاً تاماً ، ولكن كانت فيه أخلاق السياسىّ ناضجة تامة : من الاحتيال ، والرَّوَغان ، وحسن الإعداد للتخلص عند الأزمة . بَلى كانت له أخلاق السياسيين فى إبداع الحيلة والاستعداد للمخرج ، ولكن لم يكن له فى يوم من الأيام هوى مع أحد من أقطاب السياسة ، أو يعرف له رأياً فيها ، أو يدرى من خبرها أكثر مما يدرى رجل من سواد الناس يقرأ جرائد المتطرفين والمعتدلين على السواء .

* * *

ولم يكن للرافعى أجر على هذا المنصب فى حاشية الملك ، إلا الجاه وشرف النسب ، وجواز مجانى فى الدرجة الأولى على خطوط سكة الحديد ، ودلال وازدهاء على الموظفين فى محكمة طنطا الأهلية ، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع مئات من الكتبة والمحضرين وصغار المستخدمين ... !

ولكنه إلى ذلك قد أفاد من هذا النسب الملكى فوائد كبيرة ؛ فقد تعطف الملك الكريم فأمر بطبع كتاب (إعجاز القرآن) على نفقته ؛ كما أذن بإرسال ولده محمد فى بعثة علمية لدراسة الطب فى فرنسا ؛ فظل يدرس فى جامعة ليون إلى سنة ١٩٣٤ على نفقة الملك ، حتى شاء الإبراشى باشا لسبب ما أن يقطع عنه المعونة الملكية ولم يبق بينه وبين الإجازة النهائية غير بضعة أشهر ، فقام أبوه بالإنفاق عليه ما بقى . ومن أجل ما كان يرسل إلى ولده كل شهر فى فرنسا من نفقات العيش والجامعة ، كان يعمل فى (الرسالة) بأجر ، وإن عليه من أعماله الخاصة ماينوء به جسدهُ وتُنتَهك أعصابه ...!

* * *

قلت إن الرافعى ظل فى حاشية الملك فؤاد إلى سنة ١٩٣٠ ثم كان بينه وبين

الابراشى باشا أمر — بعد موت المرحوم نجيب باشا — فسكت ؛ إذ خشى أن تعصف به السياسة أو تعبث به الدسائس فترمى به إلى تهلكة ...

حدثنى الرافعى قال : « كنت فى عهد نجيب باشا أذهب إلى القصر فيلقانى بوجه طلق ، ويحتفى بى ، ويبسط لى وجهه ومجلسه ، ويثلج صدرى بما يروى لى من عطف المليك ورضاه ؛ فما أغادر القصر إلا وأنا أشعر كأن نفسى تزداد عمقاً وتمتد طولا وتنبسط سعة ؛ ثم جاء الابراشى فلم تدعنى داعية إلى لقائه ، حتى كان يومٌ وجدتُنى فيه منطلقاً إلى هناك ، لأسأله فى أمر من الأمر[1] ...

قال : « وذهب إليه الساعى بالبطاقة ودعانى إلى الانتظار ، فجلست وما أظن إلا أنها دقائق ثم أُدْعَى إليه ... وطال بى الانتظار ، ومضت ساعة ، وساعة ، وساعة ، وأنا فى هذا الانتظار بين الصبر والرجاء ؛ وحولى من ذوى الحاجات وجوه عليها طوابع ليس على وجهى منها ، ونظرت إليهم وإلى نفسى فضجرت ، فعدت أستأذن عليه وقد جال بنفسى أنه قد نسى مكانى ، فعاد إلى حاجبه يقول : الباشا يعتذر إليك اليوم ، ويسألك أن تمر به غداً فى الساعة كذا ...

قال الرافعى : « وآذانى ذلك ونال منى ، ولكنى اعتذرت عنه . فلما كان الغد جاءنى النبأ ينعى إلىّ زَيْنَ الشباب المرحوم أمين الرافعى بك ؛ فآدنى الهمُّ وثقل علىّ ، وضاقت نفسى بما فيها ، وتوزعتنى الوساوس والآلام ؛ وما نسيت وأنا أمشى فى جنازة الفقيد العظيم أن علىّ موعداً بعد ساعات ، فما هيل عليه التراب حتى كنت فى طريق عَدْواً إلى القصر وفاء بالوعد الذى اتَّعدتْ ، وجعلت من وراء ظهرى ما علىّ من واجب المجاملة لمن جاءوا يعزُّونى فى أخى وابن عمى وصاحب الحقوق علىّ . لقد كان الذى مات زعيماً من زعماء الوطنية له مقداره ، ولكنى جعلت الوفاء بالوعد فوق ما علىّ من الواجب للزعيم الذى مات ؛ وإنه لأخى ، وإن فى أعراقه من دمى وفى أعراقى ... !

قال : « ووقفت بالباب أنتظر أن يؤذن لى فأدخل ، وطال بى الانتظار كذلك

---

(١) يأتى تفصيل ذلك بعد

وإنّ فى دمى جمراتٍ تتلهب . ومضت ثلاث ساعات وأنا فى مجلسى ذلك أطالع وجوه الداخلين والخارجين فى غرفة الباشا ولا يؤذن لى ... !

قال الرافعى : « وهاجت كبريائى وثارت حماقتى ... لا أكذبك يا بنىّ ، إن فىّ لحماقة . ولكن ... إن صرامة عمر بن الخطاب قد انحدرت إلىّ فى أصلاب أجدادى من النسب البعيد ؛ ولكن صرامة عمر حين انحدرتْ إلىّ صارت حماقة . إن هذه الحماقة عندى يا بنى هى تلك البقية من صرامة عمر ، بعد ما تخطّت إلىّ هذا الزمن البعيد فى تاريخ الأجيال ... !(١)

قال : « ولما بلغ الحنق بى مبلغه نهضت وفى يدى عصاى ، فتقدمت إلى الباب خطوة فدفعته بالعصا وأنا مغيظ محنق ، فإذا أنا أمام الإبراشى باشا وجهاً لوجه ، وإلى جانبه رجل أوربى يحدثه ... ، فلم أعبأ ، ولم أكترث ، ولم أذكر وقتئذ أين موضعى وموضعه ، فقلت ما كنت أريد أن أقول ، وانتصفت لنفسى ، وثأرت لكبريائى . وأحسبنى قد خرجت يومئذ عن حدود الأدب اللائق فى الحديث معه ، ولكنى لم ألق بالاً إلى شىء من ذلك . وما كان فى نفسى إلا أننى قد قلت ما ينبغى أن أقول لأحفظ كرامتى وأصون نفسى ، ولا علىّ بعد ذلك من غضبه أو رضاه...

« ولكن ... ولكنه مع ذلك لم يغضب ، ولم يعتب ، بل اعتذر إلى وألح فى الاعتذار ... وصدقته حين ابتسم ... ! »

* * *

وأسرها الإبراشى باشا فى نفسه ؛ فلما كان الموسم التالى نظم الرافعى قصيدته وأرسل بها إلى القصر ، ورصفت حروفها مشكولة فى مطبعة دار الكتب — كما جرت العادة — ثم أرسلت بحروفها مجموعةً إلى الجريدة المختارة ، ومعها قصيدة أخرى مرصوفة مشكولة مزينة ، من نظم الأستاذ عبدالله عفيفى المحرر العربى بديوان جلالة الملك . ونشرت القصيدتان جنباً لجنب فى جريدة واحدة ، وعلى نظام

(١) تشبه هذه الكلمة أن تكون هى كلمة الرافعى بنصها كما حكاها لى ، وقد كتبتها فى مذكرتى بعد حديثه بساعات ، فاليوم أنقلها من هذه المذكرة

واحد ، وكلاهما فى مدح الملك ، فما يفرق بينهما فى الشكل إلا توقيع الشاعرين فى ذيل الكلام .

وقرأ الرافعى قصيدة منافسه الجديد ، فثار وزمجر ، وقال لمن حوله : « أترون كيف يصنع بى ؟ إنه يريد أن ينال منى . (يريد الأبراشى) أهـذا شعر يقرن إلى شعرى ؟ أيرانى وإياه على سواء ؟ أيحسب أن الأدباء سيخدعهم هذا الزخرف فى الطباعه فيجعلون صاحبهم شاعراً من طبقتى أو يجعلوننى شاعراً من طبقته ؟ أيرانى من الهوان بمنزلة الذى يرضى عن هذا العبث ؟ أفيريد أن يمهِّـد لصاحبه حتى يخلعنى عن مرتبة « شاعر الملك » ليجعله مكانى ؟ أم يراه أهلاً ليقاسمنى المنزلة والمقدار عند صاحب التاج ... »

ومضى الرافعى يومه يفكر ويقدر ، وما كان إلا فى مثل حال الرجل الذى يعود إلى داره التى يملك فإذا له فيها شريك يحتلها بقوة ساعده لا بحقه ؛ فما يجد له حيلة فى إجلائه عن الدار إلا أن يرفع أمره إلى القاضى ... وكان القاضى عنـد الرافعى فى هذه القضية هو الرأى الأدبى العام ، فرفع أمره إليه ...

وتحدث بنيَّـته إلى صديقه الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب مجلة العصور ، فأوسع له صفحات من مجلته ليبدأ الحملة على الأستاذ عبد الله عفيفى فى مقالات عنيفة صارخة بعنوان : على السَّفُّـود ؛

وما كان الرافعى يجهل أنه يتناول موضوعاً دقيقاً حين يعرض لنقد هذا الشاعر؛ فإنه ليعلم علم اليقين أن هذه المقالات سيكون لها صدى بعيد ، تصل به إلى آذان لا يسره أن تعلم من كاتب هذه المقالات ، فتنكر وأخفى نفسه ...

الرافعى وعبد الله عفيفى

لم يكن الأستاذ عبد الله عفيفى خصماً للرافعى على الحقيقة ، ولا أحسب أن أحدهما كان يرضيه أن يكون بينهما ما كان ولا سعى إليه ؛ ولـكن عبد الله عفيفى فى مكانه من ديوان جلالة الملك ، وفى موضعه عند الابراشى باشا ؛ قد دارت به المقادير

دورتها حتى وقفته مع الرافعى وجهاً لوجه ، وجعلته بالموضع الذى لا يستطيع واحد منهما فيه أن يتجاهل أنه أمام خصم يحاول أن يظفر به . ومن هنا نشأت الخصومة بين الرافعى وعبد الله عفيفى .

على أن هذه الخصومة بينهما تختلف عن سائر الخصومات التى نشبت بين الرافعى وأدباء عصره ، فهنا لم تنشأ الخصومة إلا للتزاحم على رتبة « شاعر الأمير » ؛ على حين كانت أكثر خصومات الرافعى ذياداً عن الدين وحفاظاً على لغة القرآن ، فما كنت ترى فيها إلا التراشق بألفاظ الكفر والزيغ والمروق والإلحاد ؛ أما هنا فكانت المعركة تدور وما فيها إلا التهمة بالغفلة وفساد الذوق وضعف الرأى وقلة المعرفة ... وما بدٌّ من أن يكون فى نقد الرافعى أحد هذين اللونين : الاتهام بالزيغ ، أو الاتهام بالغفلة ، ولا ثالث لهما . ومن هنا فقط نستطيع أن نزعم أن الرافعى لم يكن موفقاً فى النقد ، مع أهليته واستعداده وإحاطته الواسعه وإحساسه الدقيق ؛ إذ كان أول ما ينبغى أن يتصف به الناقد هو عفة اللسان والقصد فى التهمة وضبط النفس ... !

وثمة شىء آخر يفرق بين هذه الخصومة وسائر الخصومات : هو أن المعركة كانت إيجابية من طرف واحد ، على حين ظل الطرف الثانى صامتاً قارًّا فى موضعه لم ينبس بكلمة ولم تبدر منه بادرة مشهودة للدفاع ...

* * *

كتب الرافعى مقالات ثلاثا بعنوان «على السفود» فى نقد ثلاث قصائد أنشأها عبد الله عفيفى فى مديح الملك — والسفود هو الحديدة التى يشوى عليها اللحم — وهو عنوان له دلالته ، وفيه الإشارة والرمز إلى ماحوت هذه المقالات من الأساليب اللاذعة والنقد الحامى . وإذ لم يكن توقيع الرافعى فى ذيل هذه المقالات ولا كان يريد أن يعرف أنه كاتبها — فإنه خرج عن مألوفه فى الكتابة وفى نمط الكلام ، فاسترسل ما شاء كأنه يتحدثه فى مجلسه إلى جماعة من خاصته ، لا يعنيه الأسلوب ولاجودة العبارة ولا عربية اللفظ ، بقدر ما يعنيه أن يتأدى

معناه إلى قارئه فى أى أسلوب وبأية عبارة؛ فكثر الحشو فى هذه المقالات من الكلمات العامية، والنكات الذائعة، والأمثال الشعبية ، ولكنه لم يستطع أن يتخلص من كل لوازمه فى النقد والكتابة ، فبقيت له خفة الظل وحلاوة اللفظ وقسوة النقد ، إلى بعض عبارات فى أسلوبه تنم عليه وتكشف عن سره .

ولم يذكر الرافعى حين أنشأ هذه المقالات أنه يتناول بهذا النقد شاعراً من شعراء القصر له حظوة عند رئيس الديوان الملكى ، وأن هذا الشعر الذى يفريه ويكشف عن عيبه إنما أنشأه ناظمه فى مديح الملك . أو لعل الرافعى كان يذكر ذلك ولكنه يحسب نفسه بنجوة من التهمة لأنه لم يوقع بإمضائه على هذه المقالات؛ فلم يتحرج مما كتب وألقى القول على سجيته فى صراحة وعنف وقسوة، ولم يصطنع الأدب اللائق وهو يتحدث عما ينبغى أن يكون عليه الشعر الذى يقال فى مدح الملك وما لا ينبغى أن يقال ، فجاء فى بعض كلامه عبارات لا يسيغها الذوق الأدبى العام عند ما يتصل موضوع القول بالملك الحى الذى يحكم ويدين له الجميع بالولاء ، وكأنما ركبتْه طبيعة غير طبيعته خَيَّلتْ إليه أنه يكتب فى نقد شاعر من الماضين يمدح ملكاً من ملوك التاريخ ، فلم ينظر إلى غير الاعتبار الأدبى الخالص من دون ما ينبغى أن يراعى من التقاليد واللباقة السياسية عند الحديث عن الملوك ...

وانتهت أولى هذه المقالات إلى القصر ، فمالت الأفواه إلى الآذان ، وتهامس القراء همساً غير خفى ، ثم جهروا يتساءلون : من يكون هذا الكاتب ؟ ولكن أحداً منهم لم يفطن إليه ولم يعرف الجواب ، وأنفذوا دسيساً إلى الأستاذ إسماعيل مظهر صاحب العصور يسأله فلم يظفر منه بجواب .

ونُشر المقال الثانى والثالث ، فلم يلبث أن انكشف السر ؛ ونم الرافعى على نفسه بلسانه فى مجالسه الخاصة ... أو نم عليه أسلوبه وطريقته فى النقد .

وجاءه سائل من القصر يسأله ويستوثق من صحة الخبر فى أسلوب السياسى البارع : « ... وكيف تأذن لنفسك أن تقول ما قلت فى شاعر من شعراء الملك

وأن تكتب عنه بهـذا الأسلوب ؟ أفيتفق مع الولاء لصاحب العرش أن تكتب ما كتبت لتصرف الشعراء المخلصين عن ساحة الملك ... ؟ أم تريد ألا ينطق أحد بالثناء على صاحب التاج وألا يكون اسمه على لسان شاعر ؟ أم هى دسيسة تصطنع الأدب لتفضّ المخلصين من رعيته عن بابه ... ؟ »

وغص الرافعى بريقه ، وتبين الهاويةَ تحت قدميه يوشك أن يتردى فيها بحيلة بارعة ، وأحس الإبراشى باشا من ورائه يحاول أن يدفعه بعنف لينتقم لكبريائه التى مسها الرافعى بحماقته منذ بضعة أشهر ...

وحاول النجاة بنفسه من هذه المكيدة المبيّتة ، فلم يجد له وسيلة إلا الصمت فأوى إليه . وانقطع ما بينه وبين القصر من صلات ، إلا الصلة العامة التى بين الملك وبين كل فرد من رعيته . وكان أخوف ما يخاف الرافعى أن تكون خاتمة ذلك هى انقطاع المعونة الملكية عن ولده الذى يدرس الطب فى جامعة ليون على نفقة الملك ؛ ولكن ذلك لم يكن إلا بعد هذه الحادثة بأربع سنين .

* * *

لقد كَثُر ما استغلّ خصومُ الرافعى السياسةَ لينالوا منه ، ولقد كثر ما اتهموه بأنه من أدوات الإبراشى باشا فى محاربة سلطة الأمة ، وأنه صنيعته ومولاه ؛ على حين كان هذا الموقف هو كل ما بين الرافعى والإبراشى باشا من صلات الود والموالاة ! فما انقطعت صلة الرافعى بالقصر إلا فى عهد الإبراشى ، وما كان معه يوماً على صفاء . على أنه كان تلميذاً معه فى مدرسة المنصورة الابتدائية فيما أذكر من حديث الرافعى .

ولقد كتب كاتب من خصوم الرافعى غداة دالتْ دولة الإبراشى ، فصلاً مؤثراً ... بعبارات بليغة ... فى صحيفة من صحف الشعب ، يصف جناية الإبراشى باشا على الأدب ؛ وكان من براهينه على ذلك أنه اصطنع الرافعى ليحارب بقلمه ولسانه سلطة الأمة ... وقرأتُ هذه المقالة مع الرافعى ، ونظرت إليه فإذا هو يبتسم ابتسامة مرّة ، ثم قال : « هذا أديب يتحدث عن جناية السياسة على الأدب ...

أرأيت . . . ! صَدَق ! لقد جنت السياسة على الأدب[١] »

* * *

لم يكن لهذه المقالات الثلاث التى كتبها الرافعى عن عبد الله عفيفى صدى فى غير هذه الدائرة المحدودة ؛ على أنها أنشأت بينهما خصومة صامتة ظلت مع الرافعى إلى آخر أيامه ، وظلت مع الأستاذ عفيفى فى أحاديثه الخاصة إلى أصدقائه ، وإلى طلابه فى كلية اللغة العربية بالأزهر ...

فلما مات شوقى أمير الشعراء فى خريف سنة ١٩٣٢ ، كتب الرافعى عنه مقاله المشهور فى مجلة المقتطف ، وذكر فيما ذكر فيه أن شوقى لو كان مصرياً خالصَ المصريّة لما تهيأت له الأسباب النفسية التى بلغت به مبلغه فى الشعر ؛ لأن الطبيعة المصرية لا تساعد على إنضاج المواهب الشعرية ، ولا تعين على إبراز الشاعرية الكامنة فى كل نفس .

هو رأى أبداه فيما أبدى من الرأى ، لم يقصد به التعريض بأحد أو الحط من مقداره . وقد يكون رأياً إلى الخطأ أو إلى الصواب ، وقد يتكافأ فيه كِفّتا الخطأ والصواب ، ولكنه رأى أبداه الرافعى مجرداً من الهوى ، لا يعنى به إلا أن يستوفى عناصر بحثه ؛ ولكن خصومه تناولوه على ألوان وفنون .

أما طائفة فمالت به إلى السياسة ، وقال قائلهم : هذا رجل ليس منا ، يريد أن ينكر فضل مصر عليه وعلى آله ، فيتهمها بالعقم وركود الذهن وجمود العاطفة فيجردها من الشعراء ... ومضى فى دعواه . ذلك سلامه موسى !...

وأما ثانيةٌ فقالت : وهذا قول يعنينا به نحن الشعراء المصريين ليجردنا من الشاعرية فى قاعدة عامة لا تستثنى أحداً إلا من انحدر إلى مصر وفى أعراقه دم غريب . . . ومضت هذه الطائفة تنقض دعواه وتسفّه رأيه بما تسوق من الأمثال وتذكر من أسامى الشعراء المصريين

---

(١) لعلنا نتحدث عن هذا الموضوع حديثاً أكثر صراحة فى كتابنا : « المؤثرات السياسية فى جيل من الأدباء » الذى نعده للنشر قريباً ، إن شاء الله !

وانتضى عبد الله عفيفى قلمه ليكتب فى جريدة (البلاغ) مقالات أسبوعية بعنوان (مصر الشاعرة) يذكر فيها من شعراء مصر فى مختلف الأجيال منذ كانت مصر العربية ، ما يراه ردًّا على دعوى الرافعى . ومضى فى هذه المقالات بضعة أسابيع يضرب على وتر واحد ، ثم ملَّ هذه النغمة فراح يتصيد موضوعات أخرى من مشاهداته وآرائه فى الناس والحياة ؛ ولكن عنوان (مصر الشاعرة) ظلّ على رأس هذه المقالات يبحث عن موضوعه . . . فكان حسْب عفيفى فى هذه المقالات أن أنشأ هذا العنوان فى الرد على الرافعى !...

* * *

وقد ظل الرافعى إلى آخر عمره يذكر أيامه وهو شاعر الملك ، ثم ما كان بينه وبين الابراشى ، وبينه وبين عبد الله عفيفى . وما كانت تظهر للأستاذ عفيفى فى الصحف مدحة ملكية ، فى موسم من المواسم أو عيد من الأعياد ، حتى يتناولها الرافعى فيقرأها إلى آخرها ، ثم يلتفت إلى جليسه فيقول : « ماذا رأيت فيها من شعر ومن معنى جديد ؟ » ثم يسترسل فيما تعوَّد من المزاح والتندّر

وقد ذكرت فيما قدمت من هذه الفصول أن الرافعى كان يسمى كل جميلة من النساء « شاعرة » ؛ فمنهن كالمتنبى ، ومنهن كالبحترى ، ومنهن بشار بن برد ، ومنهن عبد الله عفيفى

فهذه الأخيرة عنده هى ذلك النوع (البلدى) من نساء الطبقة الثالثة ، التى تبدو ملفوفة (محبوكة الأطراف) فى ملاءتها السوداء ، غضةً بضَّة ، تستهويك بجمال الجسم دون جمال المعنى ، وفيها أنوثة اللحم والدم ولكنها جامدة العاطفة عقيم الخيال ...

ومعذرة إلى الأستاذ عبد الله عفيفى ! فإنما أنا راوية أكتب للتاريخ ، وما شهدت إلا بما علمت ، وعلىّ تبعة الرواية وعلى غيرى تبعة الرأى . وللأستاذ عفيفى فى نفسى على الرغم من ذلك كلُّ إجلال واحترام !